

الادب والمستقبل العربي

خطوط ... وملاح

لدينا اربع كلمات تستقطب تفكيرنا في هذه المقالة :
الادب : الشكل الفني الذي يؤدي فيه المعاني والمساير ، او
اساليب التفكير والتعبير .
العربي : تحديد الهوية القومية للادب .
المستقبل : اي مصير امة العرب .
الفاعلية الادبية : اي قدرة الكلمة على تغيير الواقع .

الفاعلية الادبية :

وبما ان الفاعلية الادبية هي الهدف المنشود ، فلا بأس من ان
نبدأ بتقصي مآنيها لان الاندفاع في تحقيقها او المبالغة في تقويمها
يؤديان الى افدح انواع الضرر بالادب وانزله على السواء . فقد ارتفع
بعيد هزيمة حزيران شعار : « الكلمة رصاصة » . واعصب ههنا

الادب والمستقبل العربي ، السنهبل اتعربي والادب ، ادب العربي
المستقبلي ، مسميات كلها بمعنى . واخشى من القلوب ان امتنحت الكلام
بالقول ان ادبنا ما لم يكن ادب المستقبل لمن يكون عربيا قط .

لا افصد بهذا معنى الخلود الادبي أو أي معنى يستشرف الابد .
افصد فقط ان الادب الحالي المكتوب باللغة العربية يجب ان يحمل في
تناياه ملاح المستقبل العربي المنشود ، اذا اراد ان يحمل هوية قومية .

الادب الذي يحمل هوية قومية هو وحده ادب المستقبل . اي
الادب المرشح لامرين :

ان يعيش بمد صاحبه ، وان يفعل فعلا يغير الواقع .
هنا يجب التوقف قليلا لتحديد مدى فاعلية الانفاظ ، تحديد
مجال عملها - مما سيحدد بالضرورة مدلولاتها .

اللغة العربية سواء اكانت في الادب او العلم او الحياة تنحصر في جمود
الفصحى العديمة عند خصائص ومواصفات حددها القدماء ، والزموا
بها جميع الناطقين بالعربية في عصرهم والعصور التالية ، وكان
اللغة لا تبدل ولا تتطور .

وما دمتا نغف بتفكيرنا اللغوي عند الحدود التي وضعها
القدماء ، فمشكلة اللغة العربية في الادب وغيره تظل قائمة ،
ونتفاقم يوماً بعد يوم ، لان أي لغة في العالم تتطور بتطور الامة ،
وتواكب مسيرتها الفكرية والوجدانية واليومية .

والامة العربية مقبلة على نهضة كبرى في جميع الميادين ، ولا بد
ان تطوع اللغة لحاجتنا العصرية ، ولا يمكن ان تظل بدوية صحراوية،
حتى ولو سلمنا بان اصولها الاولى كانت كذلك . فلفات العالم تنتقل
من خشونة البداوة الى رقة الحضارة ، ومن التعقيد الى
البساطة ، ومن القموص الى الدقة والوضوح . ولقمتنا هي احدى
اللفات التي ينطبق عليها ما ينطبق على جميع اللغات في العالم . ولا
خوف عليها من التطور والنماء ، بل الخوف كل الخوف من الجمود
الؤذي الى الزوال .

بقي ان نقول ان تطور لغتنا رهين بتطور الفكر الخلاق المبدع في
امتنا ، وسوف نشعر بحاجتنا الماسة لتطورها كلما خطونا خطوة في
مدرج الرقي والحضارة والعلم والادب .
والله تسال ان يلهم امتنا التوفيق والسداد .

د . عدنان يوسف سكيك
جامعة الفاتح - كلية التربية

واللغة المفضلة في جميع المواقف والانواع الادبية هي لغة الحياة
المعاصرة دون سواها (11) .

ولغة الكتابة المعاصرة طوعت لانواع عديدة من الادب المستحدث :
كالمسرحية والرواية والقصة . . ويستطيع الاديب ان يستخدمها دون
غضاظة في جميع اعماله الادبية فيما عدا الجانب انقائم على الحوار ،
لاننا لا نألف الحوار ولا نستضيفه الا اذا قرأناه كما تعودنا سماعه ،
اعني باللهجة العامية . وتفصيح العامية او المساس بشيء من
تركيبها يعني الاخلال بالدلالات الاجتماعية والنفسية والرمزية التي
اكتسبتها خلال تداولها اليومي بين الناس . ومن هنا
نجد كثيراً من الفتور والضعف في الحوار الذي يصطنع الفصحى
في أي عمل من الاعمال الادبية .

وكتابة الحوار بالعامية لا يباعد بين اللهجات في الوطن العربي،
بل العكس هو الصحيح ، فكتابة الحوار بالعامية في بعض الاعمال
الادبية يهدم الحواجز القائمة بين اللهجات المختلفة ، ويفدي ثروتنا
اللغوية المعاصرة ، ويبرز اوجه الشبه العديدة الموجودة بين مخالف
اللهجات في الوطن العربي .

الخلاصة :

يتضح لنا من القضايا اللغوية التي عرضناها بايجاز ، ان مشكلة

(11) من الوجة النفسية في دراسة الادب ونقده - د . محمد
خلف الله احمد - ٧٩ وما بعدها .

وتارة يريدون مجالا حيويا لاقتصادهم وتجارتهم ، وتارة يريدون ان ينشروا المدنية والتطور في ربوع البلاد العربية المختلفة .

وهم في كل تلك المزايم يستخدمون كامل قوتهم لتنفيذ الهدف بعد الهدف . يركزون ثقلهم على منطقة هي دولة مجاورة فيحناونها ، فلا تجد الدولة الاقليمية من نفسها القدرة على مجابهة اسرائيل ، ولا تمكن الإرادة العربية مقابل ذلك من ان تتصرف كقوة موحدة . وبذلك يصيح الحق العربي وتضامن المكاسب الصهيونية وتندم مما يتيح لها ان تهيب نفسها لفزة اخرى تحقق بها مزعما آخر باطلا - ولكن اسرائيل تعتمد على المبدأ القائل بأن حق القوة ينقلب مع الزمن الى قوة الحق . فالاراضي العربية التي مضى على احتلالها ثلاثون عاما اصبحت من حق اسرائيل ، أما الاراضي التي مضى على احتلالها عشر سنوات فهي موضع نزاع دولي - ولكن اذا انقضت ثلاثون سنة اخرى وما زالت محتلة سرى عليها مبدأ انقلاب حق القوة الى قوة الحق ، وهكذا ..

الحل يكون طبعا بالوحدة والتصنيع والاشتراكية .. صار هذا مفهوما ولكن اخشى ان تكون نحن الابداء مقصرين ، بل مهملين للمناداة بهذا الحق .

راينا ان دور الادب يكون في أوج فاعليته اذا بصدى لهدف بعيد وشامل . واي هدف أبعد وأشمل من صوغ الإنسان العربي لكي يكون انسانا يعبر عن هومييه في كل لحظة من لحظات حياته وفي كل ملمح من ملامح وجوده ! ولكن كيف يمكن للادب ان يساهم في صوغ الانسان القومي ؟

الادب والموقف القومي :

ثمة في الادب المضمون والشكل ، يؤلف بينهما في اغلب الاحيان الموقف . لان الموقف يجسد المضمون ويستدرج الشكل ، يعر به ولا يهليه . فينيلج شيئا فشيئا . يتألف الموقف القومى في جوهره من التفكير بالامة ككل . حين يفكر الشاعر بالاسير العربي فانما يرى الامة كلها مأسورة . وعندما ينصو القصاص لحظة يصارع البطل فيها فقره فانما يتصور صراع الجماهير العربية المدممة مع الفقر ، وفي اي وقت يخطط الروائي شخصيات روايته وهم يندفعون الى تغيير واقع بعينه فانما يندفعون الى تغيير الواقع العربي باسره ، وما ان يتولى الناقد مناقشة قصيدة مهما كانت عاطفية فانما يسمى الى بلورة رؤية قومية تلحبه ، ولا بد لهذه الرؤية من ان تصع في حسابها ان للشرائح رؤية او رؤى قومية متميزة للعب . فالادب العربي الفردي دون اداب الامم الاخرى بظاهرة التعبير عن الحب العذري مثلا ، حيث يتفرد المحبوب ويشف ويستوعب شخص العاشق وعالمه . كما شارك الادب العربي اداب الامم الاخرى في التعبير عن الحب الفاحش او الحب العسادي المألوف بين البشر ، او الحب الوهمي الذي تتخلله الخوارق ويشترك فيه الجن سعيًا للقاء الحبيبين او التفريق بينهما . كذلك يمتد الصراع مع الفقر ليشمل الحلول التي وضعتها الخلافة او القبايل التي اثارها في وجه الانصاف ، مثلما يشمل الحلول التي سمته جماهير الفقراء العرب الى فرضها على السلطة القائمة والصراعات التي خاضتها هذه الجماهير المدممة لتصل الى حقوقها . وبالمثل ، فان لدينا تاريخا طويلا مديدا في دفع الفزاة - هذا التاريخ يسمى القتال ضد الاعداء الغرباء عن العربية والاسلام ، « الجهاد في سبيل الله » . وارجو الا تنزع هذه الكلمة احدا . فان صيحة الجهاد « الله اكبر » تختزل في ثناياها بطولات اولئك الذين قتلوا ليحافظوا على عروبة الارض وعروبة الهوية القومية .. قتلوا لنبقى عربا على ارض عربية : وهذا هو معنى الاستشهاد في سبيل الله ، معناه ان نعيش او ان نموت في سبيل بقاء الامة العربية وديمومتها . يموت البعض ليبقى الآخرون موجودين في التاريخ الانساني وفاعلين فيه .

الشعار سيل من الادب الملتهب بالحلم والبراكين والجماهير المنفعلة باحلام التحرير .. ومع ذلك كله ، فقد ظلت الكلمة كئمة والرصاصه رصاصه . لا تغني احدهما عن الاخرى ولا تحل محلها ، حتى في الاستمارة او المجاز . يطلق الرصاصه على هدف قريب فنخبره على الفور . ولا كذلك الاثر الادبي بل اجرؤ ان افسول ان الادب بعكس الرصاصه : الرصاصه يخترق الهدف اقرب ، وكلما اقترب الهدف كانت الرصاصه اوقع اثرا وابلغ اصابه ، اما الادب فيقل فعله كما كان هدفه قريبا . تخيلوا قصة يدعو كاتبها القراء الى الخروج في مظاهرة بعد اسبوع من تاريخ نشرها ، بل أرجعوا بذاكرتكم الى آلاف - الفصائد الحماسية التي القيت في المظاهرات من اربعين عاما السى اليوم .. كلها ضاعت هباء . ثم يبق لنا منها اتيوم شيء . لا احد يجد في نفسه دافعا الى مراجعة الصحف التي نشرت فيها تلك القصائد . السبب ؟ انها تعالج هدفا فوريا ، مباشرا ، ومحدودا . والامر بطبيعة الحال لا يقتصر على ادب المظاهرات الوطنية ، بل ينسحب بصورة اشمل على ادب المظاهرات العاطفيه : الادب الذي يسجل ارتفاع حرارة صاحبه من العشق او ارتفاع ضغط الشاعر من ساق أو فوم .

في كل ذلك نجد الادب يخطيء الهدف ان كان هذا الهدف قريبا منه او معددا امامه . اما ان كان الهدف بعيدا او شاملا فهناك تجد الادب يفعل فعله في الضمان فيقيمها ولا يقمدها ، يهزها ويحركها ، ثم ما يلبث ان يحمل جيلا بأكمله الى تحقيق الهدف المنشود والرسمى البعيد . المثل على ذلك الادب الروسي في منتصف القرن التاسع عشر واولئ القرن العشرين . هذا الادب جعل همّه البحث في مستقبل روسيا وصورة الانسان الروسي اندي يطمح الى التغيير او يقوم به ان صوابا وان خطأ . قدم لنا كل ذلك على صورة ازمة انصمير بعد الفعل : « الجريمة والعقاب » و « انا كاريننا » - على بعد ما بينهما في النظرة - التطبيقية والدينية والسياسية - تصوران الفعل وازمنة الصمير عند جيل لا يهتم بتغيير واقعه الشخصي بقدر ما يهتم بتغيير مصير الانسان او ضميره : الانسان هنا ، حصرا ، الانسان الروسي في المستقبل . فالمستقبل والصمير هما اتحدن اللذان يعينان مجال الفاعلية الادبية ، وفدربها على التغيير .

المستقبل العربي :

لان هذه الامة بدأت بداية واحدة فانها ذات مصير واحد . النهاية واحدة لان البداية واحدة . اذا سقطت الاندلس بفعل القسوى الصليبية ، فان هذه اتقوى ذاتها سوف تهاجم سورية او فلسطين او مصر . اذا اجتاحت التتار العراق فسوف يواصلون سيرهم لاجياع سورية وفلسطين . واذا حكم العثمانيون العراق وسورية فان مصر وليبيا وبلاد المغرب واقعة تحت حكمهم لا محالة . كذلك يصدق هذا على العصر الحديث : حكمت فرنسا بلاد المغرب العربي فسقطت سورية في يدها . وحكمت بريطانيا مصر فاستولت على فلسطين والعراق .

والتجربة الاكثر معاصرة والاشد خطورة تجربة المشرق العربي مع الغزو الصهيوني : ما ان كون الصهاينة لانفسهم رأس جسر على شواطئ فلسطين حتى تطلقوا الى قلب فلسطين واستولوا على سواحلها ثم اناحوا شمالا وجنوبا نحو سوريا ومصر . وهم في هذا الاسبوع بالذات يقيمون القواعد العسكرية في جنوب لبنان وينحلون لانفسهم مزاعم العالم الغربي منذ القرن العاشر الميلادي في حماية الاقليات غير المسلمة والاقليات غير العربية - حماية هذه الاقليات من العرب ، وحماية الاماكن المقدسة من المسلمين . وهذا زعم ان لم يجد من يوقفه عند حد فسوف يمتد ليشمل الفرق الاسلامية المتعددة من شيعة او سنة او علويين او وهابيين .. الخ .

كما ان الغزو الصهيوني يتصدى للعرب بالمزايم الاستعمارية القديمة : تارة يريدون منابع المياه ، وتارة يريدون حدودا طبيعية ،

من سجل الجهاد والكفاح والنضال ، في سبيل العدالة والبقاء ، يستمد أدب المستقبل العربي شكله ومضمونه ، يستمد موافقه ويمد نظرتيه تطلعا الى عربي المستقبل ، العربي الذي يصون مستقبل امته باقامة دولة العرب المتحدة المصنعة الاشتراكية . ادب المستقبل هو مستقبل الادب العربي بل هو مستقبل الانسان العربي ، بل هو مستقبل الحياة العربية ، ان كانت سوف تستمر أو تتوقف مرة وإلى الأبد . كل شيء يتوقف على الوحدة . التصنيع يتوقف على الوحدة ، رهن قران المال العربي بالأيدي العاملة العربية والخبرة العربية ، ولا يمكن ان يتم الا بالوحدة . لان الصناعة الخفيفة تحتاج الى اسواق استهلاكية ، ولان الصناعة الثقيلة تحتاج الى رساميل واسواق لا توفرهما الا دولة الوحدة .

ادب المستقبل العربي هو مستقبل الادب العربي لان التحرير المنشود لا يقوم الا بالصناعة المنشودة ، فالامة التي لا تصنع سلاحها لا تصنع معركتها . ونحن نتوهم كثيرا اذا ظننا ان حالة الامة في نهاية هذا القرن افضل من حالتها في بدايته . والسبب في ذلك ان هذه الامة لم تخط نحو الوحدة خطوة الا تباعدت عنها خطوات . فقد بدأ الاستعمار بتأسيس الحدود السياسية ، ثم جاءت العهود الوطنية البرجوازية بعد استقلال فاضافت الحدود الاقتصادية الى الحدود السياسية ، واخيرا جاءت العهود التي تسمى نفسها ثورية فجعلت من الحدود السياسية - الاقتصادية سدا لا يمكن اختراقه حين دمجت الحدود الاقتصادية - السياسية بالحدود الاقليمية . صار لكل كيان عربي ايدولوجيا اقليمية تفلسف ماضي العرب ومستقبلهم ، لتثبت زعمها بان صنع الوحدة العربية لا يمكن ان يتم الا ضمن فباركها الفكرية .

وتنادت هذه الايدولوجيات الاقليمية لا في السطو فقط على جزء من الوطن العربي هو الاقليم الذي تعشش فيه وتسيطر عليه وانما فرضت حظرا على الفكر العربي والضمير والخيال العربيين:

ايها الاخوة ،

نحن عرب باعتبار ما مضى : يسمعون لنا ان نقرا الشنفرى والبهاء زهير ، لكن الديوان الذي يصدر في الجزائر لا يمكن ان يصل الى اليم ، والرواية التي تصدر في تونس لا يمكن ان نعرف عنها شيئا في دمشق ، والادب الذي ينتجه العراق يظل في العراق تماما كما ان الادب الذي تنتجه في سوريا او ليبيا او الاردن يظل حبيسا في الاقطار التي انتجته .

يزعمون ان السبب سوء التوزيع او قوانين تحويل العملة وغلاء الورق . هذا كذب صريح ايها الادباء : الغزلة السياسية قرار سياسي بانتاج ادب اقليمي محلي سخيف . وهذا ما ظهر واضحا منذ عشرين سنة الى الان . اتنا نجتمع الان ونحن نشكو من العزلة الثقافية ومن تدهور ادب العربي . والسبب القاطع في ذلك تشجيع الكيانات الاقليمية والايديولوجيات الاقليمية للادب المحلي . لقد انزل الادب الاقليمي وتوقع فانتج ادبا راكدا آسنا كرها يتسم بقصر النظر وضبابية الرؤى وفزمية النماذج المحلية التي يقدمها الادب في السبعينات خاصة .

لنا ، نحن الادباء المكتهلين ، خريجو مجلة «الاداب» يوم ان

كانت مجلة الوطن العربي بأكمله . كنا نقرا فيها الادب العراقي والادب المصري والادب السوري والادب المغربي - وكانت هذه التيارات الادبية تتفاعل ، وكانت الرؤى العربية تتفاعل فنتج ادبا عرياصحيا معافى ، فلم يكن البياتي شاعرا عرافيا ولا القبانى شاعرا سوريا ولا الحجازي شاعرا مصريا . كانوا شعراء العرب وكفى . اليوم لا يتاح للشبان مثل هذا التفاعل لان الايدولوجيات القطرية افرزت على صورتها ومثالها دور نشر وتوزيع مثلما افرزت على صورتها ومثالها ادباء فصلوا انتاجهم على قدها المسوخ وقامتها القزمية . الانكفاء على الذات ليس ظاهرة ادبية وانما هو ظاهرة انتجتها الايدولوجيات الاقليمية والحدود الثقافية التي فرضتها على الجيل الذي لا يبلغ الثلاثين من عمره بعد . وليس من المبالغة في شيء اذا قلنا ان كل ما ينتج في ظل الايدولوجيات الاقليمية سوف يكون سلبيا ، انهزاميا ، متقوقعا ، انزاليا .

« مهلا ، وعلى رسلكم ايها العرب » - هذا ما سوف يقوله الادب المستقبلي العربي لاصحاب الايدولوجيات الاقليمية ، ولاصحاب السلطة في الكيانات الايدولوجية الاقليمية ، وللادباء الصنفار الخائعين ضمن الكيانات والايديولوجيات الاقليمية ، وللهازائم التي تتساقط كالطرر على الكيانات والايديولوجيات الاقليمية ، وللتاريخ الاقليمي المجيد الذي تسطره لكل قطر فبارك الايدولوجيات الاقليمية المعزولة بين التخلف والصهيونية .

« مهلا - وعلى رسلكم ايها العرب » ان طريق المستقبل العربي هي طريق الادب المستقبلي العربي ، الادب الذي يعلو على الثقافة الاقليمية ، ويتجاوز الحدود الايدولوجية ، ويسمو على النماذج المحلية فيوسعها ويرفعها بقوة المصير العربي الواحد الى مرتبة النماذج البدئية العربية الاولى التي سوف تبشر بالرؤيا القومية ، بالانسان العربي الكلي ، الانسان الذي يفكر بالامة كلها ، ويجسد خلاص ازمته في خلاص الامة كلها .

ان الفكرة العربية في صميم طبيعتها فكرة سلفية او فكرة مستقبلية .

فنحن ايها السادة - عرب باعتبار ما كان ، ونحن ايضا عرب باعتبار ما نريد ان نكون اما الان فنحن خليط غريب من كيانات سياسية مفتعلة تحاول الايدولوجيات الاقليمية ان تزعم لها معنى وترسم لها دورا تبين انه خال من اية فعالية او مفزى .

وانا في هذا المقام لا اشجب فكرة الايدولوجيا بحد ذاتها ، لكنني اشجب الايدولوجيا الاقليمية بقدر ما تبرر الكيان الاقليمي وتكون اداة مطواعة لتسوية الانزعال عن المصير العربي ، او وسيلة للانفلاق الفكري والحيلولة دون التفاعل مع التيارات الفكرية العربية التي تسمى الى ان تصب في نهر الوحدة العظيم . في هذا المجال يفصل الادب العربي الحديث فعله في المستقبل ، وبرسخ في الضمائر صورة الانسان العربي الذي يخلق وحدته القومية ويصون بقاء الهوية العربية على الارض العربية . وقد كان الادب العربي على العوام معبرا عن كفاح الامة المظفر من اجل بقائها وتطورها .

محي الدين صبحي

دمشق

